ماهية التاريخ

هل تعرف كيف نشأت في وسط هذه البيئة الاجتماعية التي تتحكم في افكارك ومشاعرك التحكم كله ؟ وهل تفقه من سبب يجعل خضوعك لحكم البيئة التي نشأت وربيت فيها تاماً كاملاً ، في حين ان عقلك طالما نزع بك الى الثورة ضد النظام القائم من حولك ؟ وهل تعرف من سبب طبيعي ترجع اليه اذا حاولت أن تعلل حقيقة ذلك العراك القائم في دخيلة نفسك بين ما يوحي اليك به عقلك ، وبين ما تفسرك عليه مشاعرك ؟ اذا كنت في حيرة من امرك ازاء هذا كله ، فارجع معي الى جزائر البحار النائية ، الى جزائر «تاهيتي» او جزائر « ارض النار» ؛ وطف بمجاهل تلك البقاع التي لم يشع فيها المدنية شعاع ، ولم يرسل اليها العلم بخيط من خيوطه المضيئة ، منذ انفصلت ارضنا عن بقية النظام الشمسي لتدور حول فلكها المرسوم . هنالك وبين عشائر المتوحشين تلمس بيدك حقيقة ما يعني الطبيعيون « بالوراثة الطبيعية » التي خرج بها الانسان من ماضيه المشحون بما تعرف، وهو ضئيل تافه ، وبما لا تعرف، وهو تيه موحش تعجز مخيلتك عن انه تدرك طرفاً من اطرافه ، الا قليلاً

على ان اخص ما تقع عليه مما يحيط بك من حقائق الحياة الانسانية في فطرتها الاولى ، خضوعها خضوعاً أعمى لحكم الغيب ، دون حكم الشهادة . تحف بك حياة قوامها الشعور لا غير ، ولن تقع على اثر من آثار الحياة العاقلة التي تسكن لحكم العقل ولا تجاري العواطف وقواسر الطبيعة البشرية . وابلغ ما يأخذ بروعك في تلك الحياة ، انك تلفي نفسك محوطاً بعالم من الارواح فيه جمال ، وفيه وحشة . فالصخور القائمة حولك ، والاشجار الحافة بك ، والماء والسماء ، والدواب والهوام ، بل انت نفسك ، عبارة عن ارواح تتخايل اليك في سيرك وضجعتك ، في نومك وصحوتك ، في غدوتك وروحتك ، متحكمة في ماضيك ومستقبلك ، مؤثرة في سرك وعلنك . وعلى الجملة يخيل اليك انك روح مسيرة في وسط عالم من الارواح ، منفصل عن عالم المادة

ولا يسبقن الى حدسك أنك ثمرة مباشرة لمدنية القرن العشرين . فان ما فيك من أثر الماضي ، من أثر آبائك في العصور الاولى اكثر مما فيك من أثر المدنية الحديثة . فانت ابن الذين اعتقدوا بتعدد الآلهة ، بل ابن الذين عبدوا الاحجار والاصنام والحيوان والنبات ، وقدسوا الوهم واماتوا العقل ، ومشوا مع الخيال ونبذوا حكم القياس المنطقي . فيك من أثر تلك البيئة أضعاف ما فيك من أثر القياس

في الفلسفة ، والتوحيد في الدين ، بل جل ما بينك وبين آبائك من فرق انك اجتزت دوراً لا يزال اولئك المستوحشون في جزائرهم النائية عنواناً عليه في الزمان الحاضر . فاذا فخرت بأنك من ابناء القرن العشرين ، قرن العلم والمدنية ، فلا تنسَ ذلك الماضي لتتخذ من القياس عليه نبراساً تستضيء به ظلمات بحثك في تاريخ النوع الذي انت تابع لاحدى سلالاته ، ولتتذكر دائماً أنهُ من الاحرى بك ان تقول «كانت ابائي» بدل ان تقول «كان الاولون»

في عصر من تلك العصور التي قطعتها الانسانية في شوطها نحو المدنية الحديثة كان المعتقد ان الازمات التي أحاطت بالشعوب ، لا بل كل ما حفّ بالافراد من مطاليب الحياة وقواسرها ، راجع الى فعل إرادة علوية تفعل في الجزئيات فعلها في الكليات ، وأن كل لبانات النوع الانساني خاضعة لتأثير قوة من قوى الغيب او ما يسمونهُ ما وراء الطبيعة ، تحتكم في كل دورة من دورات الحياة مهما ضؤل أو عظم شأنها . لذلك لم يشعر العقل الانساني بحاجة ماسة لكي يستكشف سر العلاقة الكائنة بين « الماضي » و « الحاضر » ليربط بينهما بسلسلة منظومة من الاسباب الطبيعية . بل أخلد لحكم الطبيعة والزمان فظل العقل لغواً طوال تلك الاعصر التي نزلت فيها الانسانية على حكم المشاعر وحدها . لهذا نجد أن التاريخ لم يُعنَ بشيء اذ ذاك عنايتهُ باقوال مجموعة من الافراد والاشادة بذكر لفيف من الناس برزوا من بين الصفوف المتراصة ، وحكمت المشاعر بانهم ظلٌ من ظلال السماء فوق الارض ، وانهم المنفذون لما يريد القضاء ولما يعني القدر في تلك الجموع التي استنامت لحكم المعتقد الثابت حتى سلبهم ذلك المعتقد قوة البحث فظلوا على الوهم عاكفين ، غرق في السبات حول تلك الاسس التي شيد عليها صرح المجتمع البشري . ولما أن انقضى ذلك العصر بما فيه من بواعث التخيل ، وبما كان فيه من أوجه الجمال ، مقرونة بموحيات القوة الشاعرة وحدها ، واستكشف العقل أن لموجات الحوادث الانسانية التي طمت على الازمان الاولى نظاماً تخضع لهُ ماشيه بنظام سير الاجرام في أفلاكها ، وأن الشعوب التي تطفو على وجه الحياة ، والشعوب التي تبتلعها الحوادث الاجتماعية ، فتطمر في جوف الازمان ، هي بذاتها مظهر من مظاهر الحياة وحقيقة من حقائقها ، غير أنها تمتُّ باصلها البائد الى أبعد الازمان ، اغفالاً في احشاء الدهور الاولى ، محوطة بآثار ما فيها من طبيعة الحركة وفطرة التقدم ودوافع الارتقاء ، هنالك شق التاريخ لنفسه في حياة الجماعات سبيلاً بكراً ، وتوجه العقل

سلطاناً مسيطراً على ناحية من نواحي المنفعة المحققة التي ينشدها الانسان في هذه الحياة الدنيا. هنالك نبذ التاريخ طريقة السكوف على الكلام في دسائس الامراء وذوي المطامع من اهل الجاه؛ وترك الكاهن في معبده يحاول ان يفسد السياسة بالدين ويفسد الدين بالسياسة، واهمل حاشيات الملوك ومنافساتها، ومماحكات قواد الجيوش ومناظراتهم، وعمد الى تدوين اوجه الحركة والنظام التي يفيض بها نهر الحياة الانسانية، وطالما طفت على وجهه الملوك والامراء على مدى العصور وكأنهم فقاقيع متفجرة أو فضلات الهشيم المتناثرة تتلاعب بها أمواج يم ثائر ادركه المد في ليل معتكر الظلام

قد تقول غير هذا. قد تقول أن تعليل حوادث الحياة الانسانية اذ أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً عن فكرة القول بان جزئيات الحياة وكلياتها جارية على مقتضى الارادة العلوية، بعد ان عمد الناس الى تعليل الظواهر الكونية بالاسباب الطبيعية، رجع العقل عن البحث وراء المصادر التي تحرك الحوادث، الى البحث في الاسباب التي كونت الجماعات الانسانية. وهنا أتخذ التاريخ على انهُ قاعدة ثابتة لا يستطيع باحث ان يلجأ الى غيرها من ضروب المعارف الانسانية اذا ازمع أن يفقهُ شيئاً من طبيعة الحوادث «الحاضرة»، او ان يكتشف ناموساً يستهدى به أن هو اراد ان يتدبر «المستقبل»

نظر في التاريخ هذه النظرة. نظر فيه بتلك العين التي ينظر بها الجيولوجي الى بقايا الحفريات المستحجرة ليتخذ منها حلقات وسطى تربط بين الانواع المختلفة. فان المؤرخين طالما حاولوا باجتهادهم في درس الحالات العامة التي قامت في كل عصر من العصور، ان يستشفوا حقيقة البواعث والاسباب التي تمكنهم من اكتناه المؤثرات الخفية التي تربط بين حوادث عصر حاضر بابعد الحوادث وقوعاً في احشاء التاريخ الانساني

تمكن هذا التصور من عقول الباحثين تمكناً، وتغلغل في معتقد الناس، حتى ان كل عقيدة او مذهب او نظام مدني أو اجتماعي، بل الفكرات الطافية على سطح الحياة اليومية، قد لقي جماعها من الانصار من حاول ان يستكشف في تاريخها من الحلقات ما يربطها بحادثات وقعت خلال ابعد العصور ايغالاً في صميم القرون الاولى، اي بحادثة اجتماعية او تصور من التصورات او مبدإٍ او مذهب فلسفي، او باسطورة من اساطير الاولين. في ذلك نزعة من نزعات الفكر. فانك تجد ان الراديكاليين يحاولون ان يقطعوا شوط الارتقاء قفزاً على الضد من كل تجانس في نظام الطبيعة، تأييداً لوجهة نظرهم في الحياة، وان الرجعيين باعتقادهم ان مدنية العصور الاولى اقرب الى مناهج الفطرة من مدنية العصور الحالية، يعملون جهدهم ليصدوا تيار التقدم راجعين بالافكار

والمذاهب والمعتقدات الى اوابد العصور الغابرة ، على النقيض من سنن النشوء ونواميس الارتقاء ، فلا تستطيع الا ان نحكم بان هؤلاء جميعاً انما يساقون في طريقهم سوقاً بمقتضى حكم الطبيعة ومبادىء الحياة ، فيجهدون انفسهم ويعنتون عقولهم ، ليثبتوا أن لتصوراتهم ومعتقداتهم علاقة وصلة « بالماضي » الذي تقدسه المشاعر ، وان حكم ضده العقل . كل هذا ليبرروا ادعاءهم بان معتقدهم وشرعتهم احق بالحياة والبقاء في عصر « حاضر »

ولماذا نقصر استشهادنا على الراديكاليين والرجعيين ، او اية فئة من فئات الفلسفة او العقائد ، ولدينا جبابرة الملوك والقياصرة فوق عروشهم الرهيبة ، من حكم تلك النزعة التي تصور اكثر ما في التاريخ من حوادث ؟ ألم تر ملوك الدولات العظمى كيف نزلوا عما كانوا يدعون من استمداد سلطانهم من الله ، وكيف رجعوا عن الدعوى بان اراداتهم مستمدة من الارادة القدسية ، فتراهم وقد نزلوا على حكم الزمان وساووا بين انفسهم والدهماء في نظر التاريخ ، فلم يجدوا من مبرر يبررون به وجودهم بعد ان تقوضت أركان حقوقهم المدعاة في سالف الازمان ، الا ان يلجأوا الى ذكر ما كان لوجودهم من أثر في قيام المدنيات وارتقاء الشعوب ، وانهم كانوا القوامين على الشرف الوطني ان تعبث به الايدي الاجنبية ، وانهم كانوا حفظة لا داب وخزنة المصالح الوطنية ، وانهم كانوا اول الآخذين بيد البلاغة والفن ، وانهم اول من عمل على سعادة الجماهير ، الى غير ذلك مما يرويه التاريخ ؟ نجد من هذا عامة ان الملوك ورؤساء الدين ، اصبح حكمهم ازاء التاريخ حكم اصحاب المذاهب والمعتقدات ، اذ يحاولون ان يتخذوا من « الماضي » وثائق يعززون بها « الحاضر » ، ويزكونه بما فيها من الادلة والبراهين

ولن تعجز تلك النزعة التي صورت التاريخ على هذه الصورة عن ان تجد من الفكرات والنظريات ما يؤيدها . فكما ان التقاليد التي يرثها الفرد عن آبائه الاولين ، وطريقة التربية التي خضع لسلطانها ، والحوادث التي انتابته في الحياة ، ومجمل الاحوال والمؤثرات التي كونته ، لا بد من ان تترك فيه أثراً يظهر بارزاً في اخلاقه ، ويتخذ دليلاً على ما فيه من عزة وشرف في حاضره ، كذلك الحال في السوابق التاريخية التي وقعت في الحياة والافكار العامة ، فقد يمكن ان تتخذ برهاناً يقتطع من « الماضي » لتبرر به الحالات « الحاضرة » . غير ان هذه السوابق التاريخية اذا اتخذت اسانيد موثوقاً بصحتها وقوتها وان دلالتها على الاشياء ثابتة لا مبدل لها ، فتعمد سابقة منها الى ان تثبت ، بحكم العقل ونزعة البحث ، انها ذات الاثر الاول في ابراز الاسباب التي ساقت الى

حوادث الازمان الفارطة ، معتمدة في ذلك على ما تقدمها من السوابق الاخرى ، فانا نشعر بان تلك الشبكة المتخالطة التي تنسجها السوابق التاريخية متنافرة الاجزاء تنافراً لا يعزز الرأي القائل بان دلالاتها على الاشياء والحوادث ثابتة ، وان الباطل ونزعات المشاعر لا تأتيها من بين يديها ولا من خلفها . وقد نسوق هذا الحكم عينه على اولاء من فلاسفة المؤرخين الذين يحاولون ان يعزوا السبب في نشوء الجماعات الانسانية الى فعل مؤثر بعينه من المؤثرات العامة ، كتأثير الطقس او الفواعل الجوية ، او البيئة الطبيعية او علاقة رجل بالمرأة او مبدأ بقاء القوة في نظام المادة الى غير ذلك

ان « كارليل » اكثر الباحثين استهاماً في حقيقة الفكر ، واشد الكاتبين تبياناً لضؤولة المعرفة الانسانية ، قد نصح لكل المؤرخين ان ينصرفوا عن كل محاولة يراد بها اثبات ان نشوء الجماعات الانسانية راجع الى فعل مؤثر بذاته من مؤثرات الكون او الحياة ، وان الاجدر بالمؤرخ ان يبرز صورة واضحة جلية للعصر او الحادث الذي يؤرخ فيه ، ليخرج منهُ عظة او عبرة تنتج نفعاً مادياً في العمليات . لان ذلك في رأي « كارليل » اولى بالمؤرخ من ان يتطوح مع الظن ، ومن ثم يخيل اليه ان يتصور او يعتقد انهُ بتعليل نشوء الاجتماع والجماعات استناداً على تفسير ظاهرات مبدأ من مبادىء الكون ، قد بلغ الى ابعد اغوار الطبيعة وانهُ احاط باسرار الغيب والمجهول ، في حين ان المعرفة الانسانية مقيسة باسرار تلك المواقع الخفية ليست الا كفلينة طافية على وجه بحر ما تبلغ لهُ من قرار

غير ان « كارليل » مع هذا الاعتقاد يحتم على كل الباحثين وعلى الاخص المؤرخين منهم ، ان ينزعوا الى البحث في « الماضي » — اذ يقول — « ان الماضي عبارة عن نبع المعرفة الفياض الذي لا نستطيع بدون ان نسترشد بضيائه ، متعمدين او مدفوعين اليه بحكم الفطرة ، ان نتدبر الحاضر او نحدس عن المستقبل »

على هذا واستناداً على فكرة كارليل نريد ان نثبت ان للتاريخ ناحيتين لكل منهما كفاءة عقلية خاصة تتدبرها وتكيفها ، ومن ثم تعود اليها . فان اعتبر التاريخ على انهُ مجرد رواية للحوادث ، اصبح راجعاً الى كفاءة الوصف في العقلية الانسانية . وان اخذ التاريخ على انهُ تفسير فلسفي للحوادث اصبح عائداً الى كفاءة التأمل

من هنا نستطرد الى الكلام في كلتا الناحيتين لنفصل بينهما ، ولنعرف اثر كل من الناحيتين ، ناحية الوصف وناحية التأمل في التاريخ ، في ارشاد الاجيال الحاضرة او اكتناه خفايا المستقبل

اسماعيل مظهر

ثورة آراء

من الناس من لا يرى للآداب معنى ولا قيمة . اذا قلت له ما أجمل الشرف اجابك جملة فارغة . واذا قلت ما أحسن إنكار الذات في سبيل المنفعة العامة قال كلام فارغ . واذا قلت ما أعظم فائدة الخضوع للقوانين الادبية قال اعتقاد فارغ . وهكذا كل شيء ادبي ليس له عنده معنى ولا قيمة . اناس مثل هذا ذوو عقول ونفوس فارغة أضر بالانسانية من جراثيم اخبث الامراض

***

ليست كل أنانية مذمومة . لانها على نوعين . أنانية قصيرة النظر واخرى واسعة . فالاولى منحطة مهلكة للمجتمع والثانية راقية ورافعة له . وصاحب الاولى ينكمش في نفسه ويتخيل أنه الكل في الكل فلا يعمل الا للذة نفسه وراحتها وسعادتها بكل الطرق مشروعة كانت او غير مشروعة . والثاني يعتقد انه قطعة من المجتمع الانساني وعضو من نوعه . وانه مهما سعد ومهما ارتقى فهو شقي منحط ما دام مجتمعه بائساً وضيعاً . ومهما كان حراً عزيز الجانب فهو ذليل ما دام على وجه الارض انسان واحد مستعبد مغبون

***

من اجمل العواطف وارقاها محبة الحيوانات الاليفة والاعتناء بها والرفع من شأنها . وهي أدق مقياس لطيبة قلب الانسان . وان نظرة محبة وعطف يوجهها الإنسان الى كلب لهي نوع من التسبيح للاله

***

كثير من الآلام مفيد حتى أن الادوية أغلبها مر المذاق . ولا اعلم لماذا نكره الآلام لانها آلام ونحب اللذات لانها لذات . ان اللذة لا يجب أن تكون المقياس عند اختيار الاشياء بل يجب ان تكون المنفعة هي المقياس وعندئذ نجد ان فوائد الآلام اكثر من فوائد اللذات على وجه العموم حتى ان اكثر الاطعمة غذاء ونفعاً للانسان هي اقلها لذة في المذاق . ان الانسان الكامل هو الذي يعرف كيف يتلذذ بالآلام المفيدة اكثر مما يتلذذ باللذات المضرة او القليلة الفائدة ويعرف كيف يجعل ذلك ملكة فيه

من الناس من يعيش خائفاً قلقاً مضطرباً طيلة عمرهِ . اذا جلس خلتهُ قاعداً على نار مضطرمة . واذا مشى رأيتهُ كمن سيتخطفهُ الشيطان . واذا نام كالذئب او القنفذ . واذا تكلم خلت لسانهُ مقيداً فلا يجد الشجاعة الكافية لابداء آرائهِ. واني لا اعلم لماذا لا يريح هذا الانسان نفسهُ مع ان كل ما هو مكتوب لهُ في لوح القدر سوف يحدث لهُ حتماً . فان كان سيقتل فسيقتل.وان كانت ستقلع عينهُ فستقلع. وان كان سيصاب بمرض مزمن مؤلم فسيصاب بهِ.وان كان سيسرق منهُ كل ما يملك فسيسرق . فلماذا اذن يعيش في خوف واضطراب

اكثر اعمال الانسان وتصرفاته غريب عجيب فمثلاً الانسان الذي يقتل غيرهُ يقتلهُ اما لانهُ ينافسهُ في الاستيلاء على شيء مادي او ادبي واما انتقاماً لضرر اوقعهُ بهِ . فالذي يقتل شخصاً للسبب الاول يكون واهماً اذا اعتقد انهُ قد تخلص من المنافسة لانهُ ما دام اجتماعيًّا بطبعهِ وما دام عائشاً في مجتمع حتى ولو كان مكوناً منهُ ومن شخص آخر فقط فلا بد من انهُ سينافس لان منافسة الغير طبيعية في الانسان . وكل شخص مع اعتقادهِ انهُ فانٍ يتمنى امتلاك العالمين . والقوة سبب الطمع واساسهُ . والضعف سبب القناعة واساسها . والذي يقتل انساناً للسبب الثاني يكون مخطئاً ايضاً اذا اعتقد انهُ قد عاقبهُ على ما نالهُ من الضرر منهُ لانهُ يكون في الحقيقة قد كافأهُ احسن مكافأة . كافأهُ بنقلهِ من هذا العالم الذي لم يزل عالم شقاء وتعب وجهل وغرور الى عالم آخر ارقى منهُ بكثير

***

كل شيء في العالم اسيء فهمهُ والعمل بهِ في هذا الزمان الاغبر فاصبحت الحرية التخلص من القيود الادبية والخروج عليها ومطاوعة الامراض النفسية . والمساواة مساواة الفاضل بالرذل اي مساواة الفضائل بالرذائل . او تجريد الفضائل من قيمتها الادبية العظمى . والاخاء مصادقة الافاضل الاتقياء لجماعة الادنياء . اي اخاء الفضيلة للرذيلة . والسعادة جمع المال بجميع الطرق شريفها وخسيسها وانفاقها على جميع اللذات البدنية لا غير من ملبس فاخر ومسكن فخم ومأكل شهي وما شابه ذلك . والوطنية التعصب للوطن والتعدي على الامم الاخرى واستعبادها والعمل على إسقاطها وسلب خيرات بلادها . والتدين التعصب للدين والجمود والتمسك بالخرافات التي تشوب جميع الاديان . والانسانية التظاهر بالعواطف الكريمة والتلطف . والتفوه بكلمات يخرج اغلبها من الفم لا من القلب

مونبليه حسين احمد عابدين